

غادة بابل

La Belle de Babylone..

رواية تاريخية اخلاقية تصف الحياة في بابل

خرجت شميرام من قصرها في بابل تلك المدينة المظلة على الفرات . وكان هذا الصرح الشامخ في الجانب المعروف بـ « خديميرا » اي باب الله . فوقفت على ضفة النهر وشرعت تنظر الى الجانب الآخر نظرة متعجب دهش . لما ظهر لها من الابنية المنسقة . والقصور الفاخرة . والاثار الشاحصة في جانب « دتيرا » اي محل شجرة الحياة . فاطرت نفسها رؤية اشجار الصفصاف المثلية الاعصان الوارفة الظل ومنظر النخل الباسق الذي يقطع كبد السماء ثم حان لها التفاتة الى الجواردي والوصائف اللواتي كن معها فقالت لهن : انصرفن جميعكن الى البيت ولا يبق معي هنا إلا « نتو » نجيني . اذ لي نذر اريد ان اقوم به في هيكل الآلهة « انو وبل وأيا » . وربما يطول مكثي فيه فتستظركن والذي وتستظنكن .

ما كان منهن إلا ان رجعن على اعقابهن . تلبية لأمر سيدتهن . بعد ان قبلن يديها . وقمن باداء فرائض الاحترام والعبودية .

انفردت شميرام بنحو نجيتها وساد السكوت بينهما . وكانت شميرام مطرفة ذاهلة كأن في خاطرها فكرا يجرول وتريد ان تكشفه لنتو . وتستطلعها على اسرار ضميرها . ولكن عاملا سريرا كان يفقد لسانها

شاهدت نتو حالة سيدتها وعرفت شيئا من اضطرابها وحيرتها غير انها لم تجسر على ان تبادرها بالكلام او تلقي عليها سؤالا . وما كان منها حتى يلتقا برجا شاهقا عليه آثار الآلهة . والعظمة بارية عليه . وعلائم المجد والوقار ظاهرة فيه وهو ذو سبع طبقات كل طبقة منها مصبوعة بلون فضلا عن النقوش البديعة المتقنة التي ترى عليها مما يأخذ بمجامع القلوب ويفتن الانظار .

كانت الطبقة الاولى مصبوعة بالابيض والثانية بالاسود والثالثة بالقرمزي

والرابعة بالازرق والخامسة بالاحمر والسادسة بحلابة بالفضة والسابعة بالذهب .
وفي قمة الطبقة السابعة تمثال من ذهب علوه عشرون قدما للاله « بل » وفي
جانب هذه الزقورة مائدة من النضار . وكانت شمس بابل وانوارها المتألقة الصافية
تضرب على تمثال الذهب فيتلألأ كأنه مشعل يملأ ضياء الميرون وكان الهيكل عالم
القناء يناجي عالم البقاء . وكل هذا البرج هيكل اقيم لعبادة الالهة
السبعة .

مرت شميرام بهذا المعهد الديني ولم تعفل به . وغفلت عن القيام بفروض
الخشوع والاحترام لارتباك افكرها . والهواجس الكثيرة التي كانت تتناهبها
فانتهرت تنو هذه الفرصة لتقطع السكوت الذي كان سائدا بينهما وقالت لها :
سيدتي اسمعي لي ان اقول لك اننا بلازاء الزقورة وحضرتك المبهجة قد غفلت
عن القيام بشعائر الدين وواجبات الاحترام وهذا مما ينزل عليك غضب الالهة
ويجب اليك انتقامها منك .
فانتهرتها شميرام قائلة : وعيني ياتنو فان الهموم قد ساورتني وغشت على
بصري وبصيرتي . فاين هي الزقورة با امة السوء ؟ فاني لم اشاهدها ولا علم
لي بمرورها بها .

تنو - سيدتي اني تساورك الاحزان وعلام يد الاشجان قد ضربت على اوتار
قلبك بريشة اليأس حتى ان صدى الهموم يمازج نبرات صوتك فتبدو
على خياك الوسيم ظواهر الغم والاسى . ويفعل الجوى في نفسك فعلا
ينسبك اقدس الواجبات حتى انه لم يفسح لك مجالا لتقفعي بمشاهدة
مهبط نعم الالهة عند اجتيازنا بالزقورة .

شميرام - اواه ! وا حسرتاه ! لو احباب ما في نفسي جبل كردو لدعكم دكا
وبسه بسطا . ولو كانت نار حزني في عهد ايناه « مستيشتم » لنشقت
مياه الطوفان واقفر العالم . آه ! ايها الاله « بل » انك حنفت على
الانسان في عهد ذلك البار وعزمت على ان تمحوه وتلاشي نسله بمياه
الطوفان ولكن توصلات البار « مستيشتم » هدأت غضبك ونالت نصيبا
من عفوك ورضوانك . فقلبي الصغير يندب اليوم باعذبة مبرحة

وغارق في سيل عرمم مالم تنجده رحمتك وتفرج عني بعض الفرج .

افلا تعطف على شرح شبابي وريمان عمري ؟

تتو — ماذا داهمك اليوم حتى القاك في هذا اليم من الحزن والكآبة لابل قلب

فرحك حزنا ورجاءك بأما ؟ عهدي بك الفنج والدلال والفرح والمرح ؟

فما سر هذا الانقلاب فيك ؟

شميرام — سواي رجاء لي ؟ ان النية لاحل لي من حياة كلها مرائر . والقبر عندي

انصح قضاء واسعد شوى من قصور الملوك .

تتو — سيدتي العزيزة ! لقد اتخفت تبرمك حتى الآن بين الجدد والهزل اذ لم

اجد داعيا يشير كوامن شعباك فالالهة قد غمرت بك بنعم كثيرة ودرت

عليك اخلاف احسانها وعوارفها . انبتت في بيت تحسده عليك البيوت

اذ له مجد مؤثر . وشرف موروث . وشهرة بعيدة وثروة طائلة . وقد نك

من اديم الحسن والجمال والبهجة والنضارة وزينت بك بكل بديع رائع .

وانت في بيت والدتك ربة الامر والنهي . ولا تكادين تبسين بيت

شفة حتى تتحقق رغباتك فما تبرمك إلا بطرا . وما حزنك إلا وليد اوهام

واشباح .

كانت شميرام تسمع هذا الكلام ساخرة . هازة رأسها هزة الاستخفاف

بكل هذه النعم : ولما انتهت تتو من خطابها . اجابتها بصوت يقطع اليأس

والأسف : وهل تجهلين يا تتو ان النعمة قد تكون جينا نعمة . ويكون الشرف

الرفيع عائلا على هوى القلب . وما الفنى والحب والتسب والجمال والشيبة إلا

عوامل تقيد الانسان ان لم تخنم رغائب النفس . فلتفنى سلطان شديد الشكيمة

ان لم يطع يمت الجسم نجيلا .

تتو — سيدتي : خففي عنك جزعك ففي عباراتك احاجي والفتار يعسر على

الكهنة فك غوامضها . فاني لي كشف اسرارها فبوحى لي بما يمكنه

صدرك لعل ارشذك الى ما يسري عنك الهم . هذا وانا رهينة اشارتك

واطوع اليك من اناملك واقلي حياتي لسرورك وكل ما عز علي يهون

لي في سبيل رضاك .

في هذه التضاعيف بلغت شميرام وتو الهيكل فانقطع الكلام بينهما .
 الهيكل بناء فخم واسع الأرجاء ثابت الاركان بحكم البنيان متقن الهندسة
 تفنن ارباب الصناعات في افراده في قالب الاتقان فاتي طريقة بديسة في آثاره
 البابلية إذ ترى على جدرانه التعاويز النائية وهي تمثل الحيوانات والاشجار
 المتضاربة الانواع المصبوغة بالالوان الزاهية الزاهرة مما يسر النظر ويطرب
 الحاضر . وفي الهيكل اصنام الالهة المختلفة وقد نعتت نعتا في الحبر والصخر
 وقد اجاد صانعوها كل الاجادة حتى انهم حاكوا الطبيعة في مقوماتها وتشخيص
 اعضائها وتمثيل ادق اجزائها . وكان تمثال الاله « انو » على شكل انسان ذي
 لحية طويلة له ذنب كذنب النسر وراسه راس سمكة تسقط على كتفه وظهره
 وتمثال الاله « بل » بيته ملك جالس على عرش عظيم وللاله « ايا » اربعة اجنحة
 ميسوطة . وهناك غير هذه التماثيل .

كان الهيكل غاصا بالزوار والمتعبدين . وفي طرف منه منبع تفنن عليه
 الضحايا والقرايين . هناك توقد النيران في مواضعها ويحرق البخور في مجمره
 فتندلع السنة نارية من الاولى تلقي هبة وجلالا في المعبد الديني ويسطر دخان
 البخور باربعه فضاء الهيكل وتتصاعد منه سحابة كأنها تريد ان تجمع بين
 الارض والسما . فيؤثر هذا المشهد الفتان تأثيرا سريا في النفوس . ويزيد الكهنة
 المنظر بهاء بنيراتهم الدينية . فتراهم يقومون بسدانة الهيكل ويطوفون بتمثال
 الاله وينشدون الاناشيد بصوت رخيم وبين آونة واخرى يتمتمون بالفاظ
 لاتفهم عليها مسحة السحر وعلى عيائهم علائم الربا . باذية اذ اتخذوا المين
 والحداد من اجل الوسائل للاستبداد بالشعب والتبسط في السلطة واحتسكروا
 العلم والعرفان وتذرعوا بهما ليضيقوا الخناق على الشعب الجاهل ويستزفوا
 ثروتهم .

تغنمت شميرام في الهيكل وقد ضاقت بالاحزان ذمعا . واخذت تساجي
 الالهة بقلب متلهف ولوعة محترقة واغرورت عينها بالدموع وهي لاتعي
 أفي الدنيا هي ام في عالم الارواح وهجست في نفسها ان عاملا سريا ينقها الى
 مراقي الالهية فقالت : ايها الاله « انو » ايا الالهة ورب العالم الاسفل ورب

الظلمات والكنوز الخفية المستترة يا من القدرة طوع ارادتك ، والسلطان مسخر في خدمتك والكون لك مقنس والعالم لك معبد . ويا ايها الآله « بل » يارب العالم يامن بيده مغاتيح الاقاليم ومقاييد الاصقاع والبلاد والممالك ، يا من تخضع له الارواح صاغرة ، يا من يلتجئ الى ربوبيتك العبيد والضعفاء ، ويا ايها الآله « ابا » يارب العقول ومرشد الافهام يارب العالم المنظور وسيد الكائنات ، وينبوع العلوم ومعدن الشرف ، واصل الحياة ، تستمد من انوارك الالهية الرشد والعون والايدي . ايها الآلهة الثلاثة انظروا مطلقا على جبلتكم وصنعة ايديكم التي تروى تحت البلايا والمصائب ارحوها رحمة واسمعة .

بيما كانت شميرام تقوم بالصلوة كان « ييروس » الكاهن الكلداني يرمقها بنظرة ويحاول ان يكشف ما في نفسها ويقف على ما في ضميرها . وزاد رغبة في ذلك حين رأى عليها ملامح الحسن والجمال فصبت اليها نفسه وخفق قلبه شوقا وغراما . فلقد يفكر طويلا في العامل الذي حل تلك الفتاة على التهاديات والزقزقات . واثبت تعلم ان الكاهن الكلداني فطن لبقي في استمالة الشعب وله مقدرة فريدة على اغواء القوم وقراءة حبايات صدورهم . وكان موقف شميرام يدل على شيء مما في نفسها اذ كانت في الهيكل اشبه شيء بالحمامة الساجدة على فئس الشجرة تفرد مستعطفة اليها . فخف اليها مترنما طربا وقد اسكرتها الحمرة التي شربها منذ الصباح وعبقت فيه انفاس الحميا فمر بين الجمهور يمد ويتمايل وهو يسارق النظر الى القادرات فتشرب في قلبه تاثرات الشعور . فتقدم من شميرام وقال لها : ايها الفتاة عدي الآله « بل » وعدا صادقا بان تخصصي نفسك له ليلة تقضينها في هيكلهم في التهجود والعبادة فيزورك ويقبلك وهو يرأف بلا مرة بشيبتك وشيبتك رغبات قلبك فهو شقيق رحيم ولا سيما يعطف على عبادته اللواتي يخلصن له التبة . وعديني بالقرابين والضحايا وانا القنك صلاة الآلهة « اشر » . اياه الذوات والتناسل فتشقق عليك وعلى شعورك وغرامك فتظفري بموضوع حبك .

وكانت ظواهر البشر تلوح على وجه شميرام وكل لفظته من لسان ذلك الدجال كانت تبث وميض الرجاء في نفسها وتعيي ميت آمالها فارتاحت الى

اقاويله وعقدت بها حبل امانها ولا سيما نجيتها تنو قاتها مهدت لهما الطريق
ووافقت على نصائح بيروس قائلة : ان الكهنة يناجون الالهة فتوحى اليهم كل
ما هو صالح للبشر فتفتي بقوله ووطدي رجلك واعلمي بما يوصيك به .
فاخذتهما انثى بيروس ووقف بهما بين يدي تمثال الالهة أشتر وهى مبدودة
عريضة الوجه واضعة يديها على صدرها ثم لقنهما صلاة تلتاها بمباركة .

ولما انتهت الصلاة غادرتا الهيكل . وتبع بيروس خطواتها . وفي مجاز
الهيكل همس في اذن تنو كلاما لم تشعر به شميرام لانشغال بالها .

قالت تنو لشميرام: عسى ان الالهة تقبل ادعيتنا وتستجيب صلواتنا لاميما
بيروس سيقدم اليها الضحايا والقرايين . وهل فكرت جيدا ايها السيدة كيف
انه احلك مقاما رفيعا . فتقدم اليها من بين اقاربه الكهنة وازرنا في بغيتنا . الحق
يقال ان اروحيتهم تشف عن كرم عنصره .

شميرام — تلك فريضة عليهما وعلى فرقتهما الكلدان
تنو — بينك وبين بيروس بون شاسع وبين القلبين فج عميق .

شميرام — ما ذا تعنين بكلامك والى م تومنين ؟

تنو — ان الالهة عطفت عليك وتيمت قلبا في حبك .

شميرام — ومن ذا ؟

تنو — بيروس الكاهن .

شميرام — انا يواد والالهة يواد . فلم تألب الكون وآلهته ، والطبيعة واوابها على
اغتصاب قلبي ، لا وايلو ! لا اتخذ قرينا إلا شمشو ، شمس الزمان
ويبر الشبان . الا تعلمين يا تنو ان بيروس متزوج بامرأتين فكيف
ترضين به زوجا لي فاكون ثالثتهما .

تنو — أئني تحيين شمشو ؟ وما ذا يهلك زواج بيروس انه يتخذك اعلاهما
مقاما وتكونين عند ربة الحل والمقد .

شميرام — اني لا اصبر الى غير شمشو نجل عمتي فهو بغيتي الوحيدة .

تنو — او لا تعلمين ان شمشو مقتون بحب غيرك ؟

شميرام — ألعلك تريدن ان تقولي انه يحب حثرا بنت إجيبي الصراف ؟

نتو — نعم . اما بيروس فمشغوف بهواك . ويفدي كل عزيز غال في سبيل حبك .
شميرام — ان شمشو وان كان يهوى غيري إلا اني اهوأه . ومن احق من
بنت الخال بآبن عمها وسأبذل جهدي في أسر قلبه بحب غير حب ابن
العمة لأبنة خاله . وسيساعدني الزمان على ذلك . ومن ذا الذي يقدر
ان يمحو حبه من قوادي فلا اطمع في حب غيره . ولا مرة في انت
مجرى الحب سيتصل بقوادي ويتخذ له من القلب الى القلب سيلا .
نتو — لا ارى داعيا لتعلقك وهيامك بشمشو وهو مشغول عنك بعشيقته .
فخير لك ان تحبني من بهواك وتدفني عنك عناء انت في غنى عنه .

شميرام — اضربي صفحا عن ذكر بيروس فهذا امر يعد تحقيقه من رابع
المستحيلات ولا امالك عليه ولا يطاوعني قلبي ان احبه . وهبي
اني تعلقت به فدون ذلك عقيبات حمة . ووالدي يقف عثرة في سبيل
هذا الزواج ولا يعطيني لكاهن لما بين طبقة الاشراف والكهنة من
التناحر والحصام في بابل .

نتو — مالك إلا ان تلقي زمام الموافقة في حب بيروس وهو يدبر الامر مع
والدك .

لما رأت شميرام هذا الالاح قطبت حاجبها وقالت يكفيك يا عبدة
السوء ان تحاولي السيادة على قلبي ولا ارضى ان تغاتجيني مرة اخرى بهذه
المزعجات المكبرات .

فانزعجت نتو من هذا اللوم وانقبض صدرها من توبيخ سيدتها ولكنها
كظمت الغيظ . واتي لها ان تظهره وهي من الجواوي وفي عنقها قطعة من
الحديد مكتوب عليها انها ملك شلمان كرادو (اي ابي شميرام) ولكنها
اضمرت لها سوءا وفكرت في تدبير حيلة تصطادها بها .

وكانت شميرام تسرح نظرها في طرق بابل الواسعة المستقيمة وتشاهد
البيوت الفخمة وقصور الملوك وتقرعنا برؤية الجنان والبساتين المحاذية للبيوت
وتسرح بمشاهدة المروج الملاصقة قصور الامراء والاشراف والمثريين المرصدة
لزراعة البقول وشاهدت في الطريق الحبل والحمبر والحمالين ينقلون اشياء

كثيرة . فالتفتت الى نتو وقالت : ماذا يحمل هؤلاء الحمائلون ؟

فلجأبتها : يحملون القار والزفت .

شميرام — من اين يأتون به ولاي شيء يصلح ؟

نتو — يأتون به من مدينة هيت التي تبعد ثمانية ايام عن حاضرتنا . فانه ينبعث من الارض ويتدفق في نهر هيت فيجمع ويستخذ للبناء والتبليط .

شميرام — انظري يا نتو كيف ان النساء في الدكاكين والمخازن سافرات الوجه بقضين اوقاتهن ذهابا وايابا في الازقة وحملن اولادهن على ظهورهن نتو — نعم يا سيدتي . تلك نساء العامة اما الشريفات مثلك فانهن سعيئات البيوت لا يخرجن الى الهيكل إلا نادرا او لزيارة اصدقائهن عتاطات بالجواري والعبيد كأن الرجال يريدون اختطافهن وهن يتبخرن في الطرق تيه ودلالا .

شميرام — اني لا احب هذه الفخفخة وفضل عليها البساطة ولهذا لا اود ان يحف بي الميبدو الجوارى واحبشي الي من ذلك كله ان اقضي اوقاتي بمسامرتك .

نتو — سيدتي . اني اتشرف بمرافقتك وبعطفتك علي واتلقى كل كلمة تفوهين بها بالترحاب وان كانت زجرا وتانيا . لاني انا التي غيت بك وقد حملتك طفلة على ذراعي . ثم حاولت نتو ان تذكرها بانتفاضها من حديثها عن بيروس غير ان سيدتها خفت مهرولة ودخلت البيت .

ليست شميرام او بيت سلمان كرادو كما يعرفه البابليون شهرة بعيدة لعظمته وبنائه . لان صاحبه من الاشراف الثرين في المدينة . في منزل هذه الدار مجاز طويل مظلم معقود بالاجر يفضي الى ساحة واسعة الفناء مطلقة الهواء تشرق عليها الشمس فتبهجها . وحوالي هذه المرصة تقوم الابنية . وامام الغرف رواق مسقف ووجه البناء على هيئة طاق تسند اعمدة . والبناء طبقة واحدة والغرف ضيقة مستطيلة الشكل . وسقوف بعضها معقودة بالاجر وغيرها مسقفة تسقيفا مسطحا بجنوع النخل . وبعض هذه الغرف مخصص بالسكنى وبعضها بالآؤن . ولها سطح واحد يصعدون اليه بترج مبني بالاجر والبيوت تغل بعضها على بعض .

وفي البيت سرداب لا ينفذ اليه إلا نور ضئيل يقضي فيه سكانه هنجرة الحر .
ويقسم البيت الى ثلاثة اقسام . قسم للرجال وقسم للحريم والقسم الثالث
للمطبخ والعبيد والجواري . والمطبخ مشيد بالطين . ووراء البيت جنية وحقل
للزروع . وكان لاثاث كراسي مختلفة الاشكال وحصرانا منسوجة من الخوص
وخوابي واوعية وحبابا مشوية بالنار ومطلية بالالوان . وفي
غرفة شلمان كرادو وامراته سريران من خشب قوائمها على شكل ارجل
اسد وفوق كل سرير فراش وثير ولحافان . وكذا قل عن سرير شميرام .
وفي غرفة شميرام سجادة بديعة قد نسجتها بيديها في وقت الفراغ . وهناك
اوعية صغيرة للكحل والحمررة واصباغ الوجه والشعروغيرها من ادوات الزينة .
وفي المطبخ رسي وتور وقبور كبيرة . وفي الدار صواني ومائدة وملاعق
وشوكات للاكل . كان العبيد والجواري يقومون باشغال البيت من طحن وعجن
وخبز وطبخ وغسل ثياب وغيرها .

كانت تجتمع اسرة « عائلة » شلمان كرادو يوميا للاكل معا إلا ان
النساء يعترلن الرجال في المآدب .

سبت شميرام في ذلك البيت اليقة الدلال وحليقة الشرف تقضي معظم
اوقاتها في البطالة ومحادثة جاراتها من السطح وما كانت تترك السطح إلا
اذا اشتدت حرارة الشمس وتعود اليها عند انحدار الشمس الى المغرب وكانت
تزور احيانا صديقاتها في بيوتهن او تنهب الى التنزه او الى الهيكل للصلاة وقلما
تعاني مشقة اشغال البيت مثل بنات الاوساط او الفقراء . وعندما يضيئها الضجر
ويلحقها السام تعمد الى الحياطة والتطريز وكانت حياتها على هذا الطرز من
الفقر والكسل شأن كل بنات بابل المترفات الناعمات .

لما صارت شميرام في فناء الدار رفعت ثيابها وعمدت الى كوز (تككة)
كانت معلقة بجسر المشى وارتشفت الحمررة التي كانت فيها حتى ثملتها واتجهت
نوا الى غرفتها ومدت الحصير على الارض واستلت الى الوسائد الناعمة ثم
اطلقت نفسها للهوا جس .